القرية التى عرفت الحب

بقلم: محمد جبريل

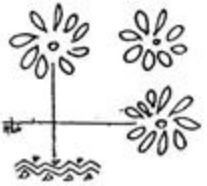

فجأة . صارت القرية الوادعة وكأنها خلية نحل : ناس تذهب وناس تجىء ، ورجال تناثروا فى هذه الناحية وتلك ، وكلام كثير عن محمد سليمان وحكايته المثيرة ..

والحكاية مثيرة حقا ..

فقد كان الشاب عائدا الى بيته ـ ذات ليلة ـ والدنيا ظلام . وصادف فى طريقه اربعة كلاب تمارس وأنثاها علاقة حب . ولم يكن فى ذلك ما يثيره أو يدهشه ، فقد اعتاد أشياء عند عودته ، كل ليلة ، من دكان الحاج يوسف .. يصادف بعض الأعراب ، يتبادلون أنفاس الحشيش بعيدا عن أعين الرقباء ، ويرمى سلامه ويمضى . لكم دينكم ولى دين . ويتعثر فى عناق بين عبد المولى الخفير النظامى وسنية خادمة بيت العمدة ، فيبسمل ويمضى . ولله فى خلقه شئون . والكل قرية واحدة .. اسرة واحدة ، ولا غرباء . فعائلة الحمصانى تقيم فى الناحية الشرقية ، وعائلة حفنى تقيم فى الناحية الغربية ، وعائلة ابراهيم القاضى ـ والتى لا يتجاوز عدد افرادها اربعة عشر شخصا ـ تقطن على مجرى النيل . فقط ، ثلاث عائلات والغيطان والكوبرى والجرن ومطحن الذرة وشونة بنك التسليف ، والبيوت الواطئة من الطين ، والنخيل السامق كمردة تناطح السحاب .. وهذا يحيى ، وذاك يسلم ،

وكيف حال خالة تفيدة ، وبقرة عبد التواب مريضة ، وجاموسة ابراهيم تدير الساقيتين . ونفيسة عليها الطلق وفرح لواحظ يوم السبت ، ومساء الخير يا حضرة العمدة ، وأنا خفير البلد : أنا الكل فى الكل .

وهذه الكلاب ، لا شىء يثيره أو يدهشه .. فقد مضى العهد بينه وبين الشقاوة والبحلقة . ويبتسم بلا ارادة منه لما يتذكر ذلك الجانب المضىء من حياته .. عنكب يا عنكب وكرة الشراب والطابة والاستحمام فى الترعة وجنى القطن وليالى الحصاد ، والآذان تنصت فى شغف الى حديث يوسف الخولى عن حسان ابن العمدة وكيف دخل على زوجته بهية دون ماشطة ، والعبارات الجنسية الصارخة التى تقولها سلامة العرباوية فتتبادلها الشفاه الصغيرة فى لذة ونشوة ، وحادثة بيومى النوبى مع وهيبة الغازية ، انها لازالت عالقة بذهنه كأنها مضت منذ عهد قريب .. ثم جلوسه والشبان على المصاطب فى هدوء ورزانة ، وقد نمت الشوارب ، وغلظت الأصوات ، وتوارت البنات فى البيوت ، وأصاخت الآذان سمعها لكلمات خطيرة مثل المنكر والعيب .

وجاوز محمد سليمان الكلاب بأمتار ، ولم يحاول حتى أن يهش عليها .. ولكن الأنثى الخبيثة — لسبب لا يدريه — تصنعت الفزع ، وجرت ..

واستحالت شهوة الكلاب حقدا مسعورا على محمد ، تعضه وتنهش لحمه .. والشاب يصرخ ويستغيث ، ويدفع بيديائسة أفواه الكلاب أن تصيب بطنه . لم يكن صراخ الشاب مبعثه الألم ، شغله الحرص على بطنه من أن تنالها أفواه الكلاب ، فيموت . نسى الألم ، ولكنه تذكر نصيحة سمعها ، يوما ، بأن يحرص على بطنه من فم الكلب ، فلا شىء أخطر من هذا . ولما ظهرت المشاعل فى أطراف المكان ، كانت الكلاب قد عقرت ساقيه وظهر كفه ، ثم جرت ..

ظلت الحكاية اياما ، محورا لأحاديث القرية . قال الشيخ زناتى أن بطن الشاب سلمت من الأذى .. فهو اذن سيعيش ! . وهمس بعض العائدين من البندر ، ان جسد الشاب أصبح كالمنخل من الابر الكثيرة التى حقن بها فى المستشفى ، وربما يموت ! .

وتحولت الأحاديث — فجأة — من مجرد التعليقات التى ترثى وتشفق وتحلل الأمور ، الى ما يشبه الهذيان الذى لا يجد بداية ولا نهاية ولا رابطا . نسى الجميع محمد سليمان وتذكروا انفسهم . خطر مفزع ، أغلق الأبواب المفتوحة ، وأطفأ الكلوبات السهرانة ، وانام القرية من المغرب .. فقد ظهر أحد الكلاب عند مدخل القرية ، وعقر طفلا . قال الشيخ زناتى :

— هذه الحادثة لها ما بعدها يا أولاد فالكلاب مسعورة وانتهى الأمر ..

— وماذا نفعل يا سيدنا ؟ .

— أنتم رجال .

— القتل ليس حرفتنا ! .

— ولكنه الآن حرفة الكلاب ..

— فماذا نفعل ؟ .

هز الشيخ كتفيه ، ولم يحر جوابا . استغرقته غيبوبة صوفية عميقة ، صرفته عن الناس ، وعن كل ما حوله .

ونفض عبد المولى الغبار عن سلاح قديم وهبه لمن يقف الى جانبه ، فيد واحدة لا تصفق . تفحص حسان السلاح جيدا وقلبه بين يديه ، ثم قال فى اسى :

ـ لا يصلح لقتل ذبابة ! .

قال عبد المولى :

ـ ابن الابالسة سرق السلاح كله ..

ـ عطوة ؟ ..

ـ كاد أول أمس يسرق سلاحى الميرى ..

ـ والحل ؟ .

نطق الشيخ :

ـ ساكلم عطوة .

الشيخ زناتى يكلم عطوة ؟ ! . يقابله ويسلم عليه ويأخذ منه ويعطى له ؟ .. هل الشمس ما زالت تطلع من الشرق ؟. وهل الكون كما هو ، لم يختل نظامه ؟ وهل جذبت الصوفية الشيخ زناتى ، فلم يعد يدرى من هو عطوة !؟ .

كان عطوة ـ حقيقة ـ واحدا من ابناء القرية . وكان والده الشيخ أمين يخرج الى الغيط ويعود ، مثل كل الرجال ، وعلامة الصلاة كأنها النبقة فوق جبهته . ولكن عطوة لم يعد من ابناء القرية .. أغلق الجميع أبوابهم فى وجهه . حتى الشيخ زناتى كان ، حين يراه ، يلوى بوزه ويتمتم : لا أكلمك حتى تستقيم . بدأ بسرقة بعض الأوانى النحاسية من بيت وهيبة الغازية ، وانتهى بسرقة السلاح من القرية كلها ، حتى يأمن الأذى .

العجيب العجيب أن الشاب لم يرفع السلاح مرة فى وجه أحد . بل ان أحدا لا يستطيع أن يضع الشهادة بأنه هو السارق فعلا .. والشاب يرسم على وجهه ابتسامة طيبة ويقول لعبد المولى :

ـ هل آذيت أحدا ؟ .. هل يملك احدكم الدليل على أننى السارق ؟ ..

ويصرخ فيه عبد المولى :

ـ اذن .. ماذا تعمل ؟ ..

ـ اتصرف .

ـ تهزأ بى ؟ .. سأبلغ المركز وليكن ما يكون ! .

ـ ألا ترى أن بندقيتك ما زالت فوق كتفك ؟ .. ضياع البندقية الميرى جناية يا عبد المولى ..

ويبحلق عبد المولى فى فزع ، ويتحسس بندقيته فوق كتفه ، ثم يتحول عن الشاب فى خطوات ثائرة ..

قال الرجال :

ـ أما من حل آخر ؟ .

قال الشيخ :

ـ لا حل سواه .

ـ نأتى بسلاح جديد ..

ـ البندر على مسيرة أيام .. وعطوة على مسيرة لحظات .

ـ هل نفتح له أبواب بيوتنا ؟ .

ـ افتحوا له قلوبكم .

ـ لكنه لص ؟ .

ـ هل رأيتموه يسرق ؟ هل قتل أحدكم ؟ ..

ـ أنت تردد كلامه ..

ـ ربما .. لكنه الحق .

واشاح حسان ـ لأول مرة ـ فى وجه الشيخ زناتى ـ بيده ، وصاح فى غضب :

ـ لا نضع أيدينا فى يد مجرم .

قال الشيخ :

ـ فليرحمكم الله .

.. عطوه فى القرية . بندقيته على كتفه ، وخطواته ثابتة ، والرجال يخالطونه بحذر ، والأعين المتلصصة ترقبه خلال النوافذ المغلقة . وانفلت جودة ابن سكينة الماشطة من باب البيت ليرى عطوة ويسلم عليه ، ولكن أمه جرت وراءه وأعادته وهى تبسمل وتحوقل وتلعن اولاد الحرام وروى الشيخ زناتى حكايات كثيرة عن عطوة والشقاوة التى دفعته الى السرقة ، ولكنه فى الأصل ابن ناس طيبين .. فوالده الشيخ أمين ، رجل ولا كل الرجال ، يعيش على فدان ونصف وحياته مثل الصراط المستقيم . وطالما نصح عطوة أن يرجع الى عقله ويساعده فى الغيط ، ويصعب الشيخ على قلب عطوة ، فيعود الى البيت والغيط ، ولكن الطبيعة الشقية ما تلبث أن تعاوده ، فيسرق أى شىء ، ويواصل سيرته الأولى ..

ـ لماذا يا سيدنا ؟ .

ـ حتى يصيح عطوة .

ـ لسنا نفهم ؟ .

ـ حتى لا يصبح الكل عطوة .

ـ تشتمنا يا سيدنا ؟ .

ـ فى القرية أسماء وأسماء ، كأنها ذرات التراب .. فى القرية عشرات العطوات .. ولكن اسم عطوة عندما يردده الجميع لا يعنى الا شخصا واحدا .

ـ لأنه يسرقنا ..

ـ لأنه يثيركم .

ـ تريد أن تسرق ؟ .

ـ حفظ القرآن فى الثامنة أمر مثير .

ـ انه سارق ..

ـ ما معنى البداية والنهاية اذا كان الوسط فارغا ؟

ـ لقد شغله بالسرقة ..

ـ لقد أصبح الرجل المهم .

.. تفرق الرجال فى الغيطـــان وبين عيدان الذرة ، وكانوا يطلقون النار على اى جسم يتحرك ، حتى كلب حســـان الأرمنت أردته رصاصة . ومر يوم وثان وفى اليوم الثالث قتل بيومى ببندقيته اول الكلاب ، وكان فى طريقه الى خارج القرية . ثم حاصر عبد الغنى احـــد الكلاب داخل الجرن القـــديم ، وضربه بالهراوة حتى مات . والقى عطوة ، عصر اليوم الرابع ، بجثـــة كلب ثالث أمام الرجال . كانوا أربعة ، هكذا قال محمد سليمان قبل أن يرحلوا به الى البندر . وفى الليل تناهى الى الآذان ، عبر الغيطان الممتدة ، عواء غريب متقطع .. ثم أطلقت سكينة الماشطة ــ فى الصباح ــ صرخة ملتاعة ، فقد سطا الكلب على معزتهـــا ومزق بطنها ..

رفع عطوة بندقيته على كتفه ومضى . هم عبد المولى بمرافقته ، لكن عطوة قال فى جد :

ــ يبدو انه أخطر الكلاب .. دعه لى

وتقضت الساعات بطيئة قلقة حائرة . وقال عبد المولى وهو يتسلل بعينيه الى وجوه الرجال :

ــ أخاف على عطوة .

قال حسان فى ثقة :

ــ عطوة رجل .

وخرج الشيخ من غيبوبته :

ــ عطوة الرجل المهم .

وظل عواء الكلب المتقطع يتناهى عبر الغيطان . ومالت الشمس الى المغيب ، والرجال فى اماكنهم ، والصمت الزافر يسود كل شيء .. ثم علا العواء فجاة واختلط ، فكانه اصوات عديدة متداخلة ودوت رصاصة ، ثم عاد الصمت أكثر عمقا ، قبل أن يظهر عطوة عند مدخل القرية .

.. سار عطوة فى شـــوارع القرية ، ورجال وعيال يكلمونه وينظرون اليه ، واحاط حسان خصره بساعده فى مودة ، واختلطت الكلمات والدعابات والضحكات وفتحت البيوت أبوابها ، وظلت الكلوبات مضـــاءة حتى الفجر ، والتف الرجال حول وهيبة الغازية ، حتى انهد جسمها من الرقص .. وقال الشيخ زناتى :

ــ ربما أصبح عطوة واحدا من القرية ، وربما أصبحت القرية عطوة .. والأمر يستوى .